

ضلال الأسطورة على المكان المقدس في المعمورة:

ضريح سيدي عبيد الشريف أنموذجا

*The Shadow of Myth on the Sacred Place in the Maamoura:
The Shrine of Sidi Oubeid Cherif as a Model*ط.د جمال عبد المالك¹، أ.د شبيحة بذاك²¹ جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)، abdelmalek@ummtto.dz² جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)، chabha.beddek@ummtto.dz

تاريخ القبول: 2026/03/26

تاريخ الاستلام: 2025/07/17

ملخص: يتناول المقال ضريح سيدي عبيد الشريف باعتباره نموذجًا للتداخل بين الأسطورة والطقس والهوية في تشكيل المكان المقدس في الثقافة المغاربية. فالضريح ليس مجرد معلم ديني، بل فضاء رمزي متعدد الأبعاد، تتقاطع فيه الرواية الشفوية بالنسب الشريف، وتتداخل فيه الطقوس الجماعية مع الروحانية والبنية الاجتماعية للمنطقة. تكشف المقاربة السوسيولوجية أن الأسطورة، بما تحمله من كرامات منسوبة للولي، تؤدي وظيفة تنظيمية ورمزية للعلاقة بين الفرد والمقدس، كما تُكرّس الضريح كمصدر للحماية الأخلاقية والروحية. وتُعد طقوس الزردة لحظة جماعية تُعيد خلالها الجماعة إنتاج ذاكرتها وتعزز انتماءها وتماسكها. ورغم مظاهر الحداثة وتغيرات العصر، لا تزال الزاوية تحافظ على مكانتها، بل وتتكيف مع التحولات من خلال حضورها في الوسائط الرقمية، مما يعكس حيوية المخيال الشعبي وقدرته على التكيف دون أن يفقد رموزه الجوهرية. ويخلص المقال إلى أن ضريح سيدي عبيد الشريف يُعد مركزًا رمزيًا حيًا يجسد استمرارية العلاقة بين الإنسان المغاربي والمقدس، ويُبرز التفاعل المعقد بين الجماعة والمكان، وبين الأسطورة والواقع، وبين الانتماء والهوية.

الكلمات المفتاحية: الولي الصالح سيدي عبيد الشريف؛ الضريح؛ الزردة؛ الأسطورة.

Abstract: The article explores the shrine of Sidi Abid El-Cherif as a prominent example of the intersection between myth, ritual, and identity in shaping the sacred space within Maghrebi culture. The shrine is not merely a religious landmark, but a symbolic space rich in meaning, where oral tradition meets noble lineage, and collective rituals intertwine with the spiritual and social dimensions of the region. The sociological approach reveals that the myth, with its attributed miracles and blessings, plays a deep symbolic role by organizing the individual's relationship with the sacred and positioning the shrine as a moral and spiritual authority and a source of protection. The Zarda rituals represent a communal moment where memory is reconstructed, belonging is reinforced, and social bonds are renewed. Despite the transformations brought by modernity, the zawiya maintains its function and even reconstructs its presence through new means, such as social media platforms, reflecting the dynamism of the popular imagination and its ability to adapt without losing its core symbols. The article concludes that the shrine of Sidi Abid El-Cherif is not merely a religious heritage site, but a living symbolic center that reflects the enduring connection between Maghrebi people and the sacred. It offers a profound reading of the complex relationship between community and place, myth and reality, and belonging and identity.

Keywords: Sidi Oubeid Cherif; saint; shrine; zarda; myth.

مقدمة

يحظى الولي الصالح في الثقافة المغاربية بمكانة تتجاوز المفهوم الديني التقليدي، فوجوده لا يُختزل في صورته كرجل زاهد أو صاحب كرامات، بل يتحول إلى رمز مركزي في تشكيل النسيج الاجتماعي والروحي للجماعة؛ فالضريح الذي يُقام على قبره لا يكون مجرد فضاء ديني للعبادة، بل فضاء تتقاطع فيه الطقوس، والذاكرة، والأسطورة، وتنبثق منه دلالات جماعية تُعيد الجماعة من خلاله إنتاج هويتها، وتأكيد انتمائها، وتحصين تماسكها.

تتجلى هذه الوظائف الرمزية بوضوح في طقس الزردة، الذي لا يُعد احتفالاً عابراً، بل لحظة زمنية استثنائية تندمج فيها العناصر الدينية والاجتماعية والثقافية؛ تُعيد الزردة تشكيل العلاقة بين الأفراد والمقدس، وتُحوّل الضريح إلى نقطة ارتكاز رمزية يلتقي فيها التاريخ الشخصي بالجماعي، والأسطوري بالواقعي، فمن خلالها (الزردة) يستعيد الناس علاقتهم بالأرض، وبأسلافهم، وبمخيالهم الشعبي المشترك، ومن أبرز النماذج على هذا التداخل الرمزي المتعدد، زردة سيدي عبيد الشريف بمنطقة قنيس، التي باتت تشكل مناسبة جماعية متجددة تُمارس فيها الطقوس، وتُستعاد الحكايات، وتُروى فيها كرامات الولي، وتُبنى على هامشها علاقات اجتماعية واقتصادية جديدة.

في هذا السياق، لا تقتصر أهمية الضريح على كونه مكاناً للزيارة والتبرك، بل يتحول إلى فضاء تعبدي وثقافي في آنٍ واحد، تُعاد فيه صياغة العلاقة بين الجماعة والمقدس. فالزردة لا تنتج فقط طقساً تعبدياً، بل تخلق زمناً رمزياً ومكاناً مقدساً تُمارس فيه الطقوس الجماعية مثل الذبح والحضرة والغناء والدعاء، ضمن أجواء مشبعة بالرمزية والدلالة. بهذه الطريقة، تُعيد الجماعة إنتاج ذاكرتها عبر ممارسات مادية وروحية، وتؤكد ارتباطها بالماضي في مواجهة انقطاعات الحاضر.

ويتضح من خلال هذا النموذج إشكالية مركزية يسعى المقال لمعالجتها: كيف تُسهّم الأسطورة والطقس الجماعي في تشييد المكان المقدس وتثبيت رمزيته داخل الجماعة؟ وكيف تتحول الزردة إلى وسيلة لإعادة إنتاج الذاكرة الجماعية وبناء الهوية الثقافية في ظل التحولات الاجتماعية والحدائية المتسارعة؟ للإجابة على هذه الإشكالية، ينقسم المقال إلى أربعة محاور مترابطة:

المحور الأول: النشأة وتأسيس المكان: يتم فيه تناول الأصل التاريخي والاجتماعي للولي سيدي عبيد الشريف، وتحليل الموقع الجغرافي لضريحه كتمركز روحي داخل الفضاء المحلي، وكيف ساهمت سيرته في إضفاء بعد قداسي على المكان.

المحور الثاني: الزردة كطقس احتفالي يُرسّخ القداسة: يدرس الطقس من حيث مكوناته، مظاهره، ودلالاته، مع التركيز على بعده الجماعي كنسج يعيد تشكيل العلاقات الاجتماعية، ويكرّس الانتماء من خلال الطقوس الجماعية.

المحور الثالث: الأسطورة كأداة لتكريس القداسة: يُفكك هذا المحور مضمون الحكايات الشعبية المرتبطة بالولي، ويُبرز كيف تُستخدم هذه المرويات الخارقة لتثبيت حضور الولي كفاعل رمزي وروحي واجتماعي، مع تحليل الدور الرمزي للمكان كمصدر حماية وتجدد روحي.

المحور الرابع: الهالة الرمزية وتوظيف القداسة في الثقافة الشعبية: يناقش الضريح كفضاء تعبدي وثقافي يتجدد حضوره رغم الحدائث، وكيف أعادت الجماعة توظيف رمزيته عبر وسائط معاصرة مثل وسائل التواصل، بما يسمح بفهم دينامية القداسة في زمن متغير.

من خلال هذه المحاور، يسعى المقال إلى تقديم قراءة سوسيولوجية وأنثروبولوجية عميقة لضريح سيدي عبيد الشريف، كنموذج لفهم العلاقة المتشابكة بين الأسطورة والمكان المقدس في المجتمعات المغاربية، وما تحمله من دلالات تتجاوز الدين لتطال الذاكرة، الهوية، والانتماء.

أولاً: النشأة وتأسيس المكان

يحظى المكان المقدس في الثقافة المغاربية بمكانة رمزية تتجاوز حدوده المادية، إذ يتكوّن عبر الزمن من تفاعل معقد بين النسب، والسرد الشفوي، والطقوس الجماعية، فضريح سيدي عبيد الشريف لا يشدّ عن هذه القاعدة، بل يُمثّل

حالة نموذجية تتجلى فيها كيفية "تمأسس" المكان الروحي داخل المجال القبلي، وتحوله إلى محور تعبدي واجتماعي يُعيد إنتاج التوازن بين الأرض والمقدس.

ولفهم هذا الضريح يتطلب العودة إلى سياق النشأة، الذي لا يقتصر على تتبع سيرة الولي فقط، بل يشمل أيضاً الظروف التاريخية والاجتماعية والجغرافية التي أحاطت بتكوّن الزاوية، وتحولها إلى معلم رمزي يحتل موقعاً مركزياً في الذاكرة الجماعية لسكان قنطيس ومحيطها. هذا المسار التأسيسي يُظهر كيف أن المكان لا يُقدّس فقط بفضل وجود الولي فيه، بل بفضل ما يتراكم حوله من روايات، وتحولات، وطقوس تمنحه مشروعية رمزية مستمرة.

من هنا، يُعدّ البحث في أصل سيدي عبيد الشريف ونسبه، وموقع الضريح الجغرافي، خطوة أساسية لفهم كيف تُبنى الرمزية في الذاكرة المحلية، وكيف يتحول ضريح بسيط إلى فضاء مركزي تنتظم حوله علاقات الجماعة، وتنمو فيه الهويات، وتُروى فيه الأساطير المؤسسة.

1. الأصل التاريخي والاجتماعي للولي سيدي عبيد الشريف

يُعد سيدي عبيد الشريف من أبرز أولياء منطقة قنطيس، ومن الشخصيات الدينية التي تركت أثراً بالغاً في الوجدان الشعبي لسكان المنطقة ومحيطها الواسع؛ لم يكن حضوره مقتصرًا على البعد الروحي فحسب، بل تجاوزه إلى مستويات اجتماعية وثقافية، حيث تجذّر اسمه في الذاكرة الجماعية باعتباره رمزاً للبركة والحماية والوصل مع المقدس؛ وقد تأسست مكانته على تراكم من الروايات الشفوية التي شكّلت مع الزمن سرديّة محلية قوية، تجد ما يسند لها في بعض الوثائق الأرشيفية والمخطوطات العائلية التي تحتفظ بها الزوايا التقليدية أو العروش المتفرعة عن سلالاته (الأزهر المجري، 2013، ص 17).

تشير أغلب الروايات إلى أن نسب سيدي عبيد الشريف يعود إلى بيت شريف يتصل بالنسب النبوي، وهو ما عزّز من شرعيته الرمزية ومنح حضوره الاجتماعي طابعاً مقدّساً منذ البداية. وقد جرى تثبيت هذا النسب ضمن البناء الرمزي الذي يربط الولاية الصوفية بالمشروعية الدينية، خاصة في مجتمعات تعلي من شأن النسب النبوي وتربطه بالكرامة والولاية الصالحة (محمود براهيم، 2005، ص 17).

أما من الناحية الاجتماعية، لم يكن سيدي عبيد الشريف مجرد زاهد أو متصوف معزول عن محيطه، بل كانت له صلة عضوية بالبنية القبلية، فقد ارتبط أساساً بقبيلة أولاد سيدي عبيد التي تنتسب إليه وتنسب نفسها له، وهي قبيلة اتخذت من خدمة الضريح والزاوية وظيفه جماعية ودينية، تُمارس عبر الأجيال باعتبارها شكلاً من أشكال الوفاء العرفي والديني؛ وقد أسست هذه العلاقة لنظام اجتماعي تتداخل فيه المسؤولية الدينية مع الدور القبلي، بحيث تحوّل الولي إلى مركز رمزي يجمع القبيلة ويوحدها ويمنحها شرعية الانتماء والتماسك (الهادي بشوات، 2010، ص 12).

وساهمت هذه العلاقة في تكريس الضريح كمؤسسة دينية واجتماعية قائمة بذاتها، يُنظّم حولها الموسم السنوي المعروف بزردة سيدي عبيد، والذي يتضمن طقوساً جماعية تمارس فيها الذاكرة والمخيال دوراً محورياً في إعادة إنتاج قدسية المكان (عبد الوهاب شلال، 2006، ص 175).

كذلك، ارتبط اسم الولي بالعديد من الكرامات التي نسجها الأهالي حوله، وشكّلت جزءاً من موروثهم الرمزي. من بين هذه الكرامات ما يُحكى عن قدرته على شفاء المرضى، والتدخل الغيبي لحماية الزوار أو السكان من الأذى، إضافة إلى ظهوره في الأحلام والرؤى، وهي عناصر تُعد أساسية في تثبيت صورة الولي في الوجدان الشعبي كقوة روحية حامية ومُلهمة (محمد الناصر، 2020، ص 12).

وقد ساعد هذا الامتداد الرمزي في جذب الزوار من مناطق عديدة، ليس فقط من داخل الجزائر بل من تونس أيضاً، خصوصاً من القبائل الحدودية التي كانت على صلة تاريخية بالزاوية، ما جعلها مركزاً إقليمياً للزيارة والتبرك. وتذكر بعض المصادر أن الزاوية في فترات التاريخ السابقة كانت تحتضن حلقات الذكر وتعليم القرآن وعلوم التصوف، وتستقبل الطلبة والمريدين، وهو ما يعكس أدوارها التربوية والروحية، ويجعل من سيدي عبيد الشريف أكثر من مجرد ولي، بل شخصية محورية ساهمت في تشكيل البنية الرمزية والاجتماعية للمجتمع المحلي (صالح علواني، 2013، ص 120-123).

إن هذا التكوين التاريخي والاجتماعي يعكس كيف أن صورة الولي في المخيال الشعبي ليست وليدة الصدفة، بل نتاج سيرورة من التفاعل بين النص الديني، والموروث الصوفي، والبنية الاجتماعية التي وجدت في الضريح نقطة التقاء بين الأرض والسماء، وبين العرف والدين، وبين الجماعة والذاكرة.

2. جغرافيا المكان والتمركز الروحي

يقع ضريح سيدي عبيد الشريف في منطقة جبلية تُعرف بقنتيس، ضمن ولاية تبسة، غير بعيد عن الشريط الحدودي الذي يفصل الجزائر عن تونس. وتمثل هذه المنطقة امتداداً طبيعياً للهضاب العليا الشرقية، وتتميز بتضاريسها المتنوعة التي تجمع بين الجبال والتلال والسهول الوعرة، ما يمنحها طابعاً طبيعياً خلاباً لكنه صعب المسلك. هذه الجغرافيا لعبت دوراً حاسماً في تشكيل رمزية المكان، إذ منحت الضريح عُزلة روحية طبيعية، ووضعت الزائر في تجربة جسدية ونفسية تتطلب جهداً للوصول، كأنها تمرين رمزي على طلب البركة (كاستال بيار، 2010، ص 13-14).

يتموضع الضريح على تلة مرتفعة تطل على نبع ماء دائم الجريان يُعرف محلياً باسم "حاسي الدفن"، وهو عنصر طبيعي يكتسب قدسية خاصة في المخيال الشعبي؛ يعتقد الأهالي أن هذا النبع يتمتع بخصائص روحية وشفائية، ويتداولون قصصاً عن بركته، خاصة فيما يتعلق بعلاج الأمراض الجلدية والعقم، إضافة إلى قدرته على "جلب الراحة النفسية" لمن يغتسل أو يتوضأ بمائه. هذا الاعتقاد يُضفي على الموقع أبعاداً تتجاوز الطبيعة، ليصبح مكاناً طهورياً يحقق نوعاً من التجدد الرمزي والبدني للزوار (سليم درنوني، 2018، ص 652).

إن اختيار موقع الضريح لم يكن اعتباطياً بحسب المرويات الشفوية، بل يروى أن سيدي عبيد الشريف، بعد سنوات من التجوال في الجبال وممارسة الزهد والتأمل، هو من اختار هذا الموضع بنفسه ليُدفن فيه. وقد اعتُبر هذا الاختيار "إلهاماً ربانياً" أو "وصية روحانية"، ما منح للمكان مكانة خاصة في وعي الجماعة. فرغبة الولي في أن يُدفن على ارتفاع يُشرف على القبيلة ويُطل على النبع، تُفهم في المخيال الصوفي كرمز للرغبة في الاستمرار بالحماية الروحية والرقابة من العالم الآخر (محمود براهيم، 2005، ص 103-105).

وتُضيف طبيعة المكان طابعاً درامياً على تجربة الزائر، فالصعود إلى التلة يُعد طقساً في حد ذاته، يضاهي في بعض مراحل الطواف أو الاعتكاف، ويخلق استعداداً نفسياً للاتصال بالمقدس. فكل خطوة نحو الضريح تُفسّر كاقتراب معنوي من البركة، وكل مشهد طبيعي يُحيط به يُستحضر كبُعد من أبعاد الكرامة المرتبطة به (محمد الصالح رزايقية، 2011، ص 139-141).

كما أن تموضع الضريح في منطقة حدودية يمنحه بعداً إضافياً في الوعي الجمعي، إذ يُنظر إليه بوصفه "حارساً للجهات"، أي أنه رمز للحماية الروحية من الأخطار القادمة من الأطراف، سواء كانت مادية أو رمزية. وهذا يتوافق مع تصورات الصوفية حول الأولياء الذين يشكلون شبكة حماية روحية للبلاد، و"أقطاباً" تحمي الناس من المصائب والكوارث. ومن هذا المنظور، فإن سيدي عبيد الشريف لا يُعد فقط ولياً محلياً، بل قطباً تتعدى سلطته الرمزية المجال القبلي لتشمل المجال الجغرافي بأكمله.

أما من الناحية الرمزية، فإن الموقع المرتفع يرمز في الثقافة الصوفية إلى العلو والقرب من السماء، أي القرب من الله. بينما يُمثل النبع رمزاً للتطهير والتجديد، والحدود توحى بالحماية من المجهول. بهذا التكوين الثلاثي (العلو، الماء، الحافة) يتجسد الضريح كفضاء جامع بين عناصر الطبيعة الثلاثة: الأرض، والماء، والهواء، ما يمنحه شحنة رمزية مكثفة تُعزز من فاعليته الروحية في الوعي الجماعي (محمد الصالح رزايقية، 2011، ص 145).

كل هذه العناصر مجتمعة جعلت من الضريح مركزاً روحياً مفتوحاً على محيطه الجغرافي والاجتماعي، وجعلت من زيارته تجربة دينية واجتماعية وثقافية، تتكرس بشكل خاص في موسم الزردة السنوي، الذي يحوّل الفضاء إلى ساحة كبرى للاحتفال الجماعي، وممارسة الطقوس، والتعبير عن الانتماء.

وهكذا، لا يُعد ضريح سيدي عبيد الشريف مجرد معلم ديني، بل فضاءً رمزياً يتقاطع فيه الواقعي بالخيالي، والزماني بالروحي، ويتحوّل فيه الجسد إلى أداة تواصل مع اللامرئي. وهو ما يفسّر استمرار فاعليته في الحياة اليومية للناس، رغم تغير السياقات الاجتماعية والسياسية، حيث ظل الضريح نقطة توازن بين الواقع والغيب، ومصدراً للسكينة والانتماء والاستمرارية.

ثانياً: الزردة كطقس احتفالي يرسّخ القداسة

تُعد الزردة واحدة من أبرز الطقوس الجماعية التي تُمارس في الثقافة المغاربية حول أضرحة الأولياء، وتكتسب خصوصيتها من كونها طقساً مركباً يجمع بين البعد الديني، والامتداد الاجتماعي، والتجلي الفني الشعبي. فهي ليست مجرد مناسبة احتفالية، بل لحظة زمنية شديدة الكثافة الرمزية، يُعاد من خلالها تثبيت علاقة الجماعة بالولي، وتأكيد مكانته الروحية، وتجديد التعاقد الرمزي بين الأفراد والمقدس.

في حالة ضريح سيدي عبيد الشريف، تُنظم الزردة سنوياً مع بداية فصل الربيع، حيث تفتح الطبيعة ويعود الدفء للحياة، ما يمنح الطقس أبعاداً إيحائية ترتبط بالتجدد والخصوبة والانبعاث. لا تُقام الزردة بشكل عفوي، بل تُحضّر لها لأسابيع مسبقة، وتشارك في التحضير مختلف مكونات القبيلة، من رجال ونساء، كبار وصغار، في تنسيق يعكس الروح الجماعية المتجذرة في التقاليد المحلية. ويتم تحديد تاريخ الزردة من طرف وجهاء القبيلة ومقدمي الزاوية، استناداً إلى الذاكرة الزمنية الموروثة والأعراف المتفق عليها.

1. طقوس الزردة وتجلياتها الرمزية

تُعد طقوس الزردة جوهر الاحتفال الديني والاجتماعي الذي يُنظم سنوياً حول ضريح سيدي عبيد الشريف. فهي لحظة زمنية مشحونة بالرمزية، يتجدد خلالها التعاقد بين الجماعة والمقدس، ويُستعاد التاريخ الروحي والرمزي للولي. هذه الطقوس لا تُمارس بشكل عشوائي، بل وفق نظام دقيق، تتداخل فيه التراتبية الزمنية والرمزية، وتنفذ فيه كل مرحلة بوعي جماعي محكوم بالموروث والعرف (الصيديق ثياقة، 2014، ص 04).

تنتقل الزردة قبل أيام من موعدها الرسمي بتحضيرات تشمل تنظيف الضريح، تزيينه بالأقمشة المطرزة والأعلام الخضراء، وترميم ما تهالك من بناء الزاوية أو ساحة الاستقبال. هذا الإعداد المسبق يُعد أول خطوة رمزية في تهيئة المكان لاستقبال الزوار والبركة، ويمنح للفضاء صفة "الاستعداد للمقدس"، تماماً كما يُطهّر المكان قبل الصلاة.

ثم تبدأ المرحلة الأساسية في يوم الزردة، وهي طقوس الذبح الجماعي. تُذبح الأغنام أو الأبقار أمام الحاضرين، وتُذكر أسماء أصحاب النذر أو العائلات التي قدمت القران، ما يُضفي على الذبيحة صفة النية، ويمنح الفعل بُعداً طقسياً واضحاً. يُنظر إلى الذبيحة ليس كمجرد طعام، بل كوسيلة للتقرب من الله عبر الولي، وكفعل جماعي يُطهّر الجماعة من الشرور، ويجلب البركة. يُوزّع اللحم على الجميع دون تمييز، مع أولوية واضحة للفقراء وعابري السبيل، ما يعزز من قيمة الكرم الجماعي بوصفه فضيلة اجتماعية مرتبطة بالمقدس (الصيديق ثياقة، 2014، ص 78).

مع حلول المساء، تنتقل الزردة إلى طقوس الذكر الصوفي. تُقام حلقات واسعة تضم رجالاً ونساءً، ويتصدرها المقدمون وشيوخ الطريقة. تُستخدم الدفوف والمزامير التقليدية، وتؤدي المدائح النبوية وأشعار تمجّد الولي، وتستحضر كراماته. لا تقتصر هذه الأناشيد على الجانب التعبدية، بل تتحول إلى وسيلة لرواية سيرة الولي بلغة شعبية حية، تُعيد للذاكرة المحلية تفاصيل حياته، وتجعل من الحفل مناسبة لرواية التاريخ من وجهة نظر روحية. هذا الحضور الغنائي الشعائري لا يُنظر إليه فقط كترفيه، بل كأداء روحي يُحرك المشاعر، ويُدخل الجماعة في حال من التماهي مع سيرة الولي (كمال بوغديري، 2015، ص 24).

ويتوسط الزردة طقس مركزي آخر، هو التبرك بالضريح، يأتي الزوار أفراداً وعائلات إلى قبر الولي، يقرأون الفاتحة، يضعون أيديهم على الضريح أو جدران الزاوية، ويتمسكون بحجارتها أو تربتها. النساء أكثر حضوراً في هذا الطقس، حيث يضعن قطع قماش، أو حلياً، أو نقوداً رمزية، تعبيراً عن نذر أو رغبة في الشفاء أو تيسير الزواج أو الإنجاب. بعضهن يذرف

الدموع أمام القبر، في لحظة شعورية مكثفة يُستدعى فيها الأمل والخوف والتسليم، ويُترجم فيها الاعتقاد بدور الولي كوسيط روحي فاعل بين الإنسان والسماء (عبد الكريم براهي، 2018، ص 185).

وتُعتبر هذه الطقوس مجتمعة لحظة رمزية تؤسس لعلاقة حية ومتجددة بين الإنسان والمقدس. فهي تُعيد إنتاج الذاكرة الجماعية، وتُكرس صورة الولي في الوعي الجمعي بوصفه حامي الجماعة، وسندها في مواجهة الهموم اليومية. كما تُعيد استحضار الأساطير المؤسسة المرتبطة بحياته، كقصص الكرامات، أو حكاية اختياره لمكان دفنه، أو ظهوره في المنام، وهي كلها عناصر تُغذي المخيال الشعبي، وتُضفي على الطقس طابعاً يتجاوز الزمن الحاضر. بالتالي، فإن الزردة لا تُفهم فقط بوصفها احتفالاً، بل كتمارين رمزية مكررة تُعيد إنتاج المقدس في الواقع، وتُشكل فضاءً جماعياً لإعادة تأكيد الانتماء، وتحويل الضريح إلى مركز تدور حوله الحياة الروحية والاجتماعية للمجتمع المحلي.

2. الزردة كنسيج اجتماعي يعيد تشكيل الجماعة

لا تقتصر الزردة على طابعها الروحي والطقسي، بل تُجسد لحظة اجتماعية كثيفة تُعيد فيها الجماعة ترتيب علاقاتها، وتفعيل شبكاتها الداخلية والخارجية؛ فهي لحظة تفيض بالمعاني الاجتماعية، حيث تتحول الزاوية ومحيطها إلى فضاء تفاعلي مفتوح، يجتمع فيه أفراد من أعمار وخلفيات ومناطق مختلفة. هذا الفضاء لا يقتصر على أداء الطقوس، بل يتسع ليشمل مظاهر من التلاقي والتواصل والاندماج، بما يجعل الزردة حدثاً اجتماعياً بامتياز.

يأتي إلى زردة سيدي عبيد الشريف أناس من قبائل وعروش متفرقة، من داخل المنطقة وخارجها، بمن فيهم زوار من تونس المجاورة. البعض يأتي وفاءً لنذر قديم، والبعض يحمل رغبة في التبرك، بينما يراها آخرون فرصة للتواصل مع الأهل والمعارف. هذا التعدد في الدوافع يُنتج ساحة اجتماعية مفتوحة، تتحول فيها الزردة إلى منصة لتجديد العلاقات، ومعالجة الخلافات، وعقد المصالحات، وتثبيت التحالفات القبلية القديمة أو الناشئة. وفي هذا السياق، تؤدي الزردة وظيفة شبيهة بالوظائف السياسية والاجتماعية التي كانت تؤديها المجالس القبلية في الماضي (يوسف العارفي، 2012، ص 28).

وتبرز في هذا الحدث مظاهر التضامن والتكافل الاجتماعي بشكل جلي. يتطوع أصحاب المال والمكانة لتقديم الذبائح والطعام والشراب والملابس. تُجهز موائد جماعية كبيرة، يُؤكل فيها الجميع من نفس الإناء، دون تمييز طبقي أو قبلي، في صورة تجسد الروح الجماعية التي تنصهر فيها الفروقات داخل وعاء مشترك من القداسة والكرم. تُخصص أجزاء من الذبائح للفقراء والمحتاجين، ويُقدّم الطعام لعابري السبيل والزوار الغرباء، في تجسيد فعلي لقيم الضيافة والبركة (حكيم بورحلة، 2016، ص 61).

تُمارس النساء أدواراً فاعلة في هذه المناسبة، ليس فقط في الطبخ وتحضير الوجبات، بل أيضاً في أداء الأغاني والأهازيج الشعبية، وتبادل القصص والندور والدعاء. أما الرجال، فيتوزعون بين التنظيم، الذبح، وتوجيه الزوار. هذا التعاون المتبادل يعكس التوزيع التقليدي للأدوار داخل المجتمع المحلي، لكنه يفتح أيضاً المجال لتقاطع الأدوار وتفاعلها في جو من التكامل (حكيم بورحلة، 2016، ص 63).

من خلال هذه الممارسات، تتجلى الزردة كنوع من "المؤسسة الاجتماعية المؤقتة"، التي تُعيد الجماعة من خلالها تأكيد قيمها، وتنشيط ذاكرتها، وبناء روابطها من جديد. فهي تُعيد تثبيت الشعور بالانتماء، وتجعل من الضريح نقطة ارتكاز رمزية تعيد للناس الشعور بالاستقرار والتماسك في وجه التغيرات الاجتماعية والاقتصادية.

كما أن طابعها الإقليمي يجعل منها حدثاً عابراً للحدود المحلية، تُشبه في ذلك مواسم كبار الأولياء مثل موسم سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالعاصمة، أو ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني في بغداد. هذه الأضرحة الكبرى تستقطب جماهير واسعة، وتُمارس حولها طقوس مشابهة من التبرك والتواصل والتضامن، مما يُظهر أن الزردة ليست طقساً معزولاً، بل حلقة في شبكة من الممارسات الروحية والاجتماعية المنتشرة في العالم الإسلامي، خاصة في السياقات الصوفية والريفية (زينب دهيمي، 2012، ص 05).

بفضل هذا التداخل بين الطقسي والاجتماعي، وبين الرمزي والعملي، تتحول الزردة إلى طقس ديناميكي، يُنتج الجماعة من جديد، ويربطها بأصلها الرمزي، ويُقدّم لها فضاءً مقدسًا تُعيد فيه تعريف ذاتها. فهي لحظة توازن بين الفرد والمجتمع، بين الماضي والراهن، وبين الأرضي والروحي، تضمن استمرارية الذاكرة وتجدد الانتماء.

ثالثًا: الأسطورة كأداة لتكريس القداسة

تلعب الأسطورة دورًا محوريًا في صناعة صورة الولي وتثبيت رمزيته داخل الوعي الجماعي، فهي لا تكتفي بسرد وقائع حياته، بل تضفي عليها طابعًا خارقًا يُخرجه من الزمن العادي، ليصبح شخصية شبه مقدسة تحيا في الذاكرة وتُستدعى في الطقوس. في حالة سيدي عبيد الشريف، لا تقتصر الأسطورة على كراماته وأفعاله في حياته، بل تمتد لتلامس لحظة موته، ومكان دفنه، وحتى ما بعد الدفن، بما يعزز من حضوره الرمزي ويمنحه سلطة تتجاوز حدود الزمن والمكان.

بحسب السرديات الشفوية المتداولة في قننيس، فإن سيدي عبيد لم يُدفن حيث مات، بل رفض أن يُوارى الثرى في المكان الذي توفي فيه، وطلب نقله إلى تلة "حاسي الدفن"، وهي نفس التلة التي أصبحت موقعًا لضريحه الحالي. وتُروى القصة بصيغة توحى بأن الولي، ببركته وقوته الخارقة، قد أشار أو أوحى لأتباعه بمكان دفنه، بل يُقال في بعض الروايات إنه "تحرك بجسده" إلى الموضع الذي اختاره. هذا النوع من السرد يُرسّخ صورة "الولي الذي يتحكم حتى في موته"، ويُضفي على الموقع طابعًا قدرّيًا، وكأنه اختير من السماء لا من الأرض.

1. الخارق والمعجز في الحكاية الشعبية

تُمثل الحكايات الشعبية حول سيدي عبيد الشريف بنية رمزية متكاملة تتقاطع فيها الأسطورة بالتجربة الجماعية، وتشكل عبرها الجماعة تصورًا خاصًا للقدر، والحماية، والعلاقة مع الغيب. هذه الحكايات لا تروى كقصص للترفيه، بل كوقائع حية في ذاكرة المجتمع المحلي، يُستند إليها لتفسير الظواهر غير المفهومة، وتُستحضر في لحظات الأزمات كآلية لاسترجاع التوازن النفسي والروحي.

فالروايات المتداولة تصف سيدي عبيد بأنه كان يملك قدرة خارقة على شفاء الأمراض، سواء الجسدية أو النفسية، بوسائل غير عادية. يُقال إنه كان يُشفي بـ"النظر"، أو "اللمسة"، أو بمجرد التوسل إليه. بعض الأهالي ما زالوا يروون قصصًا عايشوها أو سمعوها من أجدادهم عن مرضى فقد الأطباء الأمل فيهم، لكنهم استعادوا عافيتهم بعد زيارة الضريح أو شرب ماء "حاسي الدفن". هذا النبع المرتبط بالولي يُنسب إليه خاصية علاجية، لا بحكم تركيبته الفيزيائية، بل باعتباره محمّلًا ببركة الولي وروحه الطاهرة (عبد الكريم براهمي، 2018، ص 189).

وتذهب الحكايات أيضًا إلى أن سيدي عبيد لم يكن مجرد شافيًا، بل كان حاميًا. يُروى أنه كان يصدّ الأذى عن أهل المنطقة، ويحمي الزاوية من الاعتداء، بل ويُعاقب من يسيء إليها. بعض الروايات تتحدث عن أشخاص حاولوا التعدي على حرمة المكان أو الاستهزاء بقديسيته، فأصيبوا بأمراض غامضة أو تعرّضوا لحوادث غير مفسّرة، ويُقال إن ما أصابهم كان بسبب "غضب الولي". هذه الحكايات، رغم بساطتها الظاهرية، تؤسس لمفهوم متين مفاده أن الولي لا يزال حيًا في وعي الجماعة، حاضرًا برمزيته، ومؤثرًا في حياتهم اليومية (عبد الكريم براهمي، 2018، ص 189-190).

هذا البعد الخارق لا ينفصل عن السياق الثقافي العام للجزائر، خصوصًا خلال الحقبة العثمانية، التي عرفت انتشارًا واسعًا للأساطير المرتبطة بالأولياء. في الجزائر العاصمة، مثلاً، ارتبط اسم سيدي عبد الرحمن الثعالبي بمجموعة من الكرامات، مثل حماية المدينة من الغزوات، أو إبعاد الأوبئة، أو إنقاذ الناس في المنام. وفي منطقة القبائل، حُفظت قصص سيدي بوقيرين الذي كان "يتدخل" لمنع الفتن أو يشفي المرضى ببركته. هذه الشخصيات لم تكن تُقدم كأبطال فرديين، بل كرموز روحية تؤسس لمنظومة حماية جماعية تستمد مشروعيتها من الخارق (حفيلة بومعقودة، 2010، ص 19).

اللافت أن هذه الروايات، رغم ما تحمله من طابع عجائبي، تُستخدم بوعي اجتماعي عميق. فهي ترسّخ الاحترام تجاه الزاوية، وتؤسس لحدود أخلاقية ضمن الجماعة، كما تخلق نموذجًا تربويًا يُقدّم للأطفال والشباب عن القدوة والمثل

الأعلى. إنها تحكي عن رجل صالح كانت له قدرات غير عادية لأنه عاش طاهراً، متعبداً، خادماً للناس، ما يجعل الأسطورة هنا أداة تثقيف وتوجيه ضمن نظام القيم المحلي.

كما تُمكن هذه الحكايات الناس من فهم عالمهم ضمن منطق يتجاوز العقل الصارم. حين يعجز التفسير الطبي، أو ينهار التفسير العقلاني أمام المصائب، تلجأ الجماعة إلى الولي وقصصه لتستعيد الإحساس بالأمان. فالكرامة تُصبح رديفاً للعدالة، والخارق يُعيد المعنى في عالم يهدده الغموض (عبد الكريم براهمي، 2018، ص 186).

في النهاية، تُشكل هذه القصص إطاراً معرفياً مشتركاً يُعيد إنتاج مكانة الولي في كل جيل. فهي لا تُخلد من أجل الماضي فقط، بل تُستعاد باستمرار كجزء من الحياة اليومية، كمرجعية تُستند إليها عند المرض، أو عند التردد في اتخاذ القرارات، أو عند فقدان الأمل. بهذه الطريقة، يتحول سيدي عبيد الشريف من شخصية تاريخية إلى رمز دائم الحضور، يتحرك في الذاكرة والأسطورة، ويُؤدي وظائف روحية وثقافية متجددة عبر الزمن.

2. المكان المقدس كحارس رمزي للجماعة

مع تراكم الحكايات الشفوية والأساطير التي تحيط بسيدي عبيد الشريف، لم يعد الضريح مجرد مرقد لولي صالح، بل تحول في المخيال الجمعي إلى ما يشبه "الحصن الروحي"، الذي يحمي الجماعة من الشرور، ويربطهم بقوة غيبية يُعتقد أنها تراقب وتحرس وتبارك. هذه المكانة لم تُبن فقط على الاحترام الديني، بل على منظومة متكاملة من الرموز والسلوكيات والمعتقدات، التي جعلت من الزاوية مركزاً تتقاطع فيه الوظائف الدينية والاجتماعية والرمزية.

في قنتيس، يُنظر إلى بركة سيدي عبيد الشريف على أنها قوة ممتدة تتجاوز حدود الضريح. يُعتقد أنها تشمل الأرض الزراعية، وتحفظ الماشية من المرض، وتؤمن البيوت من المصائب، وتحمي الأطفال من العين والحسد. حتى العلاقات الاجتماعية اليومية، مثل المصاهرة أو الشراكة، قد تُربط ببركة الولي، ويُقال إن من يتجاهل حرمة الزاوية في تعاملاته قد يواجه عواقب غير محمودة. في هذا التصور، تتحول الزاوية إلى "سلطة معنوية"، غير مرئية، لكنها فعالة، تُعيد ضبط سلوك الأفراد وفق معايير الجماعة وأعرافها (عبد الكريم براهمي، 2018، ص 187).

هذا الاعتقاد ليس معزولاً عن التجربة التاريخية الأوسع للمجتمع الجزائري، خاصة في العهد العثماني، حيث تشكل وعي جماعي يعتبر الأولياء بمثابة حراس رمزيين للمدن والقرى. كانت الأضرحة تُبنى في مداخل المدن أو على المرتفعات، ليس فقط لأنها أماكن مميزة، بل لأنها تمثل نقاط حماية رمزية ضد الغزوات والأوبئة والفتن. وكان يُقال إن "المدينة التي فيها ولي محروس لا تمسها المصائب"، وهي عبارة تلخص الإيمان بوظيفة الحماية الغيبية التي يُفترض أن يقوم بها الولي. وقد ظل هذا التصور حاضراً بقوة في الذاكرة الثقافية للجزائريين حتى بعد الاستعمار، رغم التحولات التي طالت أنماط التدين والمؤسسات الدينية (الصيديق ثياقة، 2014، ص 348).

تُعيد الزاوية في قنتيس تجسيد هذا الدور ولكن في إطار محلي، حيث يستمر الضريح في أداء وظيفة رمزية مهمة، من خلال كونه مرجعاً للطمأنينة الجماعية. حين تمر الجماعة بأزمة أو كارثة طبيعية أو اجتماعية، يلجأ إلى الضريح طلباً للفرج، أو يُنظم موسم استثنائي يُطلب فيه تدخل "الولي" بالدعاء والشفاعة. هذه العلاقة ليست عابرة، بل تُغذى باستمرار من خلال الطقوس، والحكايات، والنذور، والزيارات، وكلها تُسهم في تثبيت الضريح كمكان مقدس لا يُمس، وكمرآة تعكس توتر الجماعة أو تماسكها (حكيم بورحلة، 2016، ص 88).

كما أن الأسطورة لا تُجمد الولي في الماضي، بل تُعيده إلى الحاضر عبر شبكات من المعاني المتجددة. في كل زمن، تُروى الحكايات بطريقة تُجيب عن أسئلة الوقت الراهن: لماذا انتشرت الأمراض؟ لماذا تعرضت الأرض للجفاف؟ لماذا اختلت العلاقات الاجتماعية؟ وفي كل مرة، يُعاد ربط هذه التساؤلات بالمكان المقدس، وكأن الضريح يحتفظ بإجابات لا تُكشف إلا عبر الطقوس والدعاء والبركة (محمد الصالح رزايقية، 2011، ص 75-76).

بهذه الطريقة، تُصبح الزاوية مؤسسة رمزية تلعب دوراً حاسماً في الحفاظ على التماسك الداخلي للجماعة. فهي تُنظم سلوك الأفراد دون قوانين مكتوبة، وتُرسخ قيم التضامن، والاحترام، والخشية، دون حاجة إلى سلطة رسمية. كما

تمنح شعوراً بالأمان الروحي، وتُوفّر إطاراً لفهم المحيط وتفسير الأحداث، في عالم سريع التحول. لذلك، فإن حضور الزاوية ليس مجرد تقليد، بل هو حاجة متجددة للجماعة، تعبّر عن سعيها نحو التوازن والاستمرارية والانتماء.

رابعاً: الهالة الرمزية وتوظيف القداسة في الثقافة الشعبية

يُعتبر ضريح سيدي عبيد الشريف من أبرز المعالم التي تحمل رمزية ثقافية وروحية متجذرة في الذاكرة الجماعية لمنطقة قنتيس. فوجوده لا يُختزل في كونه مكاناً للدفن أو التبرك فقط، بل يتجاوز ذلك ليُجسّد منظومة كاملة من الرموز التي تنسج حولها الهوية المحلية. هذا الضريح لا يُفهم إلا من خلال تعدد أدواره وتداخل أبعاده، التي تمسّ الروحي والاجتماعي والثقافي وحتى الاقتصادي. بذلك، يتحوّل المكان إلى نقطة مركزية في المخيال الشعبي، تُعاد عبره صياغة علاقة الناس بالقدس، وتُبنى حوله معاني الانتماء والولاء.

تماماً كما لاحظ باحثون في دراسات مماثلة، مثل حالة سيدي يعقوب التلمساني، حيث تحوّلت زاويته إلى مركز علمي وروحي، وحتى نقطة تفاعل اقتصادي واجتماعي، فإن زاوية سيدي عبيد الشريف تؤدي أدواراً مشابهة في محيطها المحلي، رغم اختلاف السياق. إنها تلعب دور "المرجعية الصامتة" التي تُحكم من خلالها العلاقات بين الناس، وتُقاس عندها المواقف، وتُستعاد بداخلها القيم المؤسسة للجماعة.

1. الضريح كفضاء تعبدي وثقافي

إن الزاوية في السياق المغربي عامة والجزائري خاصة، ليست مجرد مؤسسة دينية ضيقة الوظائف، بل فضاء مركب تتداخل فيه الوظائف الروحية بالتربوية والاجتماعية. فهي تمثل "مركز الثقل" في الحياة اليومية للجماعة، تجمع بين القداسة والشأن العام، وتعمل كحلقة وصل بين الفرد ومجتمعه، بين الأرض والقدس، بين الماضي والحاضر.

تتجسد في زاوية سيدي عبيد الشريف هذه التعددية بشكل واضح. فهي بدايةً مكان للعبادة والذكر، تُقام فيه الصلوات بشكل منتظم، وتُحيى فيه المناسبات الدينية الكبرى مثل المولد النبوي ورمضان، إضافة إلى الليالي الصوفية التي تُنظمها الطرق المنتسبة للولي. هذه الجوانب العبادية تُمنح بعداً خاصاً لأنها تتم داخل فضاء يحظى ببركة "ولي صالح"، ما يضيء على الممارسات اليومية بعداً روحانياً مضاعفاً (محمود براهيم، 2005، ص 220، 227).

لكن الزاوية تتجاوز هذه الوظيفة لتؤدي دوراً تعليمياً أصيلاً، خاصة في المجتمعات القروية التي كانت تفتقر إلى مؤسسات تعليمية رسمية في الفترات الماضية. فقد شكّلت الزوايا مدارس شعبية لتحفيظ القرآن، وتدريب الفقهاء المالكي، وسرد قصص الأنبياء والصحابه وأولياء الله الصالحين. وكانت هذه المعارف تُنقل شفهيّاً في حلقات علمية يقودها شيوخ الزاوية، ما أتاح للأجيال المتعاقبة نوعاً من "التنشئة الدينية المتدرجة" في محيط موثوق ومقدّس (بودريعة ياسين، 2007، ص 89).

على المستوى الاجتماعي، تؤدي الزاوية دور الملجأ. حين يتعرض أحد الأفراد لمظلمة، أو يُطرد من قبيلته، أو يعاني فقراً أو مرضاً، يلجأ إلى الزاوية بحثاً عن الحماية أو الدعم أو المبيت. ويُعتبر من يمسّ حرمة الزاوية كمن ارتكب فعلاً مخالفاً للأعراف والأخلاق، لأنها تمثل رمزاً للعدالة الرمزية، ومأوى للمستضعفين. وقد سُجلت حالات كثيرة عبر التاريخ المحلي في قنتيس تُروى فيها حكايات عن أشخاص احتسبوا بالزاوية فأمنوا العقاب، أو نذروا للولي فنجوا من المحن (عبد الجليل التميمي، 1985، ص 103).

أما في الزردة، فتظهر هذه الوظائف جميعها بشكل متكامل ومضخم. في هذه المناسبة، يتحوّل الضريح إلى مركز إشعاع ثقافي وروحي واجتماعي. تبدأ الاستعدادات قبل الزردة بأسابيع، وتوزع المهام بين أفراد القبيلة، وتُفتح أبواب الزاوية لكل من يرغب في المشاركة أو التبرك أو التعلم. تختلط الأناشيد الصوفية بالأهازيج النسوية، ويتناوب الرجال على حلقات الذكر، بينما تشغل النساء بإعداد الأطباق الشعبية، وتتناقل القصص عن كرامات الولي. تُروى خلالها السير الشعبية، وتُنشد المدائح، وتُقدّم النذور، وتُجدّد العلاقات الاجتماعية (صلاح مؤيد العقبي، 2008، ص 91).

هذه الديناميكية تمنح للزاوية بعداً تواصلياً عابراً للقبيلة. يزور الضريح في هذه المناسبة سكان من قرى ومدن مجاورة، بمن فيهم من انتقلوا للعيش في المدن الكبرى، فيتجدد عبرهم الرابط بالمكان الأصلي. هذا الحضور الكثيف يُحوّل الزاوية من مؤسسة محلية إلى مجال مفتوح للتلاقي الثقافي والديني، ما يعزّز دورها كمركز ثقافي تعبدي يتجاوز أبعاد القرية أو القبيلة ليشمل فضاءً اجتماعياً أوسع.

بهذا المعنى، فإن زاوية سيدي عبيد الشريف لا تُختزل في الوظيفة الطقسية، بل تتجلى كفضاء يخزن الذاكرة الجماعية، ويعيد إنتاج القيم الأساسية للجماعة، ويمنحها فرصة دورية لإعادة تعريف ذاتها ضمن نسق رمزي مستمر.

2. المكان المقدس في زمن الحداثة

رغم تسارع التغيرات التي عرفها المجتمع المحلي والوطني، من انتقال الأفراد إلى أنماط معيشة حضرية، وتوسع المدن، وصعود القيم الفردانية، لم يفقد ضريح سيدي عبيد الشريف مكانته داخل الوعي الجمعي. بل على العكس، ظل يمثل رمزاً ثابتاً في زمن التحولات، ومرجعية روحية تُستدعى كلما شعر الفرد أو الجماعة بحاجة إلى إعادة ترتيب العلاقة مع الذات والمجتمع والذاكرة.

لم يتحول الضريح إلى مجرد معلم تراثي صامت، بل بقي مكاناً حياً يُستعاد حضوره في لحظات القلق الاجتماعي والانفصال الرمزي عن الجذور. وهذا واضح في الزردة، التي أصبحت موعداً سنوياً لعودة أبناء قنيتيس والمناطق المجاورة ممن استقروا في المدن الكبرى. هذه العودة لا تُقرأ فقط في بعدها الديني أو الطقوسي، بل تحمل في طياتها دلالة على التمسك العميق بالمكان الأصلي، ومحاولة تعويض ما تسببت فيه حياة المدينة من تفكك في الروابط العائلية والاجتماعية (شمس الدين كيلاني، 2005، ص 36).

المكان هنا يعمل كأداة لإعادة إنتاج المعنى. في ظل عالم سريع الزوال، يمثل الضريح نقطة ثبات، يعود إليها الناس ليستعيدوا ما فقدوه من حس الانتماء. فزيارة الزاوية ليست مجرد فعل عبادي، بل تُجسد بحثاً عن التوازن، عن الإيقاع البطيء المنسجم مع الزمن الرمزي للمجتمع التقليدي، عن عالم تملؤه المعاني بدل الوظائف. وفي هذا السياق، تتحول الزردة إلى ما يشبه "المضاد الرمزي" للحداثة المعولمة، حيث تُمارس الطقوس الجماعية، وتُروى الحكايات، وتُستعاد الأدوار التقليدية للجنسين، وتُستحضر السلطة الرمزية للولي بوصفه الحامي والمُلمهم (محمد مكحلي، 2020، ص 103).

هذا التفاعل بين المكان المقدس والواقع الحداثي لا يأخذ شكل صراع مباشر، بل يبدو أشبه بالتفاوض. فالزردة اليوم تُصوّر بالهواتف الذكية، وتُنشر على وسائل التواصل الاجتماعي، وتوثق لحظة بلحظة، مما يدل على انتقال طقوس القداسة إلى الفضاء الرقمي. لكنها لا تفقد جوهرها، بل تُعيد تشكيل نفسها ضمن وسائط جديدة، وتكتسب جمهوراً أوسع، بما في ذلك أفراد لم يعد لهم وجود فعلي داخل القرية، لكنهم يواصلون الارتباط الرمزي بها من خلال متابعة صور وفيديوهات الزردة.

بهذا المعنى، يمكن النظر إلى ضريح سيدي عبيد الشريف كفضاء ديناميكي يملك قدرة نادرة على امتصاص التناقضات: هو في الوقت نفسه موقع تقليدي وحيز معلوم، نقطة عودة وأداة اندماج، مجال للتبرك وجسر لإعادة تشكيل الانتماء. إنه يمثل في المخيال المحلي "حصن الهوية"، حيث تتجلى المقاومة الناعمة للاندماج الكلي في عالم مادي يطغى عليه الاستهلاك والعقلنة.

وفي النهاية، فإن بقاء الضريح فاعلاً في الحياة الروحية والاجتماعية لسكان قنيتيس، رغم كل ما تغير من حوله، يدل على أن المقدس لا يُلغى بالتحول، بل يعيد اختراع نفسه. هو ذاكرة نشطة، وأداة رمزية تُستدعى كلما احتاج الناس إلى تأكيد ذواتهم في وجه التفكك، وكلما أرادوا أن يقولوا لأنفسهم: ما زلنا هنا، وما زال لهذا المكان معنى.

خاتمة:

يمثل ضريح سيدي عبيد الشريف حالة نموذجية تُجسّد التداخل العميق بين الأسطورة، الطقوس، والهوية في بناء المكان المقدس داخل الثقافة المغاربية. فمن خلال تتبعنا لمجمل العناصر التي تحيط بالزاوية، من النسب الشريف للولي، إلى موقعه الجغرافي المميز، إلى طقوس الزردة، إلى المرويات الشعبية التي تمنحه قدرات خارقة، تبين أن الضريح لا يُختزل في بُعد ديني صرف، بل يشكل فضاءً معقدًا تتقاطع فيه الدلالات الرمزية والاجتماعية والروحية.

لقد أظهرت الأسطورة، في هذا السياق، قدرتها على تثبيت المعنى في الزمان والمكان. فالكرامات المنسوبة للولي، من شفاء، حماية، إرشاد، لا تُفهم فقط كتعبير عن الإيمان الفردي، بل هي أدوات رمزية لإنتاج نوع من النظام الجماعي، حيث يتحول الضريح إلى مركز لضبط السلوك، وتسوية الخلافات، وتجديد الانتماء. كما أن طقوس الزردة، بما تحمله من بُعد جماعي، تعيد خلق الروابط داخل المجتمع، وتحافظ على استمرارية الجماعة رغم التغيرات.

ومن خلال المقاربة السوسيولوجية للمكان، يظهر أن ضريح سيدي عبيد الشريف لا يؤدي وظيفة روحية فحسب، بل يعمل كفضاء تواصل مفتوح، تُمارس فيه الطقوس، وتُروى فيه الحكايات، وتُنسج عبره علاقات اجتماعية جديدة. إنه فضاء تعبدي وثقافي في آن، مؤسسة رمزية تمارس أدوارًا متعددة، من التعليم الديني إلى فضّ النزاعات، إلى تعزيز التضامن الاجتماعي.

في ظل الحداثة، لم تفقد الزاوية مكانتها، بل استطاعت أن تتكيف مع التحولات، فعودة الناس إلى الزردة، تصوير الطقوس، نشرها على وسائل التواصل، كلها مؤشرات على أن المخيال الشعبي لا يزال فاعلاً، وأن الذاكرة الدينية للجماعة قادرة على إعادة تشكيل نفسها ضمن وسائط جديدة، دون أن تفقد جوهرها.

وبذلك، يمكن القول إن ضريح سيدي عبيد الشريف يمثل أكثر من مجرد موروث ديني، بل هو بنية رمزية حيّة، تُجسّد مقاومة ثقافية صامته، وتُعيد إنتاج المعنى والانتماء في زمن القطيعة. إنه أحد مفاتيح فهم علاقة الإنسان المغاربي بالمقدس، وعلاقته بالمكان والهوية، بل هو أيضاً انعكاس لصيرورة متواصلة يعيشها المجتمع بين التمسك بالجذور ومواجهة تحولات الحداثة.

إن فهم هذه الظاهرة لا يسمح فقط بإدراك وظيفة الضريح في محيطه المحلي، بل يفتح أيضاً مجالاً لفهم أوسع لمكانة الولي في المخيال المغاربي، كوسيط رمزي بين الأرض والسماء، بين الجماعة والقداسة، بين الذاكرة والراهن.

الإحالات والمراجع:

- الأهر الماجري (2013)، القبيلة الولائية والاستعمار أولاد سيدي عبيد والاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس 1830-1890م، مسار التفكيك وآليات المقاومة، تونس: المطبعة المغاربية للطباعة والإشهار.
- بودريعة ياسين (2007)، أوقاف الأضرحة والزوايا بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني من خلال المحاكم الشرعية وسجلات بيت المال والبايلك، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر 02، الجزائر.
- حفيفة بومعقودة (2010)، البنية الحكائية في القصة الشعبية منطقة تبسة أنموذجا، دراسة ميدانية، رسالة ماجستير في الأدب العربي تخصص أدب شعبي، تبسة: جامعة العربي التبسي، الجزائر.
- حكيم بورحلة (2016)، ظاهرة الوعدة في الجزائر، وعدة سيدي أحمد المجدوب ببلدية عسلة ولاية النعامة نموذجاً، رسالة ماجستير في علم الاجتماع الثقافي، وهران: جامعة وهران 02، الجزائر.
- زينب دهيمي (2012)، التغير الاجتماعي داخل الأسرة الجزائرية "دراسة مقارنة بين الأسرة الممتدة (التقليدية) والأسرة النووية (الحديثة)، ملتقى وطني حول الأسرة والتحديات المعاصرة، ورقلة: جامعة قاصدي مرباح، الجزائر.
- سليم درنوني (2018)، من سيدي عبد السلام المشيشي إلى سيدي خالد العبيسي (قراءة أنثروبولوجية لموسي الزيارة والحج إلى الأضرحة في الأوراس والزيان)، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع35.
- شمس الدين كيلاني (2005)، رمزية القدس الروحية، قدسية المكان، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- صالح علواني (2013)، انتشار الولاية في بلاد القبائل الرحل وتشكل قبائل مرابطية ما بين القرنين السابع والتساع الهجريين/القرنين الثالث عشر والخامس عشر ميلاديين، مجلة إنسانيات، ع01.
- الصديق ثياقة (2014)، المقدس والقبيلة الممارسة الاحتفالية لدى المجتمعات القصورية بالجنوب الغربي الجزائري، زيارة الرقاني نموذجاً، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الاجتماعية، الجزائر: جامعة وهران.
- صلاح مؤيد العقبي (2008)، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، الجزائر: دائر البصائر.
- عبد الجليل التميمي (1985)، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، الجزائر، وتونس، وليبيا، 1816-1871، تونس: مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني.
- عبد الكريم براهمي (2018)، مؤسسة الزاوية بالبلاد التونسية وتحولات الوظائف، زاوية سيدي بن علي عون نموذجاً، مجلة أنثروبولوجيا، مج04، ع08.
- عبد الوهاب شلاي (2006)، نظرات فاحصة في تاريخ تبسة وجهاد أهلها في القرن 19م، دراسة تاريخية من خلال الكتابات الفرنسية، الجزائر: دار الهدى.
- كاستال بيار (2010)، حوز تبسة، ترجمة: العربي عقون، الجزائر: مطبعة بغيحة حسام.
- كمال بوغديري (2015)، الطرق الصوفية في الجزائر "الطريقة التيجانية نموذجاً"، دراسة أنثروبولوجية بمنطقة بسكرة، أطروحة دكتوراه، جامعة سطيف، الجزائر.
- محمد الصالح رزايقية (2011)، أضواء على تاريخ سيدي عبيد الشريف، الجزائر: دار هومة.
- محمد الناصر بن محمد (2020)، المشجر الفريد في نسب أولاد سيدي عبيد، الجزائر: أدليس للنشر والترجمة.
- محمد مكحلي (2020)، الأولياء والصلحاء في الجزائر، الظاهرة والجذور، الجزائر: دار القدس العربي.
- محمود براهم (2005)، سيرة الشيخ سيدي عبيد الشريف والتأثير الديني والجهادي لزاويته، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- الهادي بشوات (2010)، كتاب التعريف بالشيخ سيدي عبيد الشريف، الجزائر: دار الهدى.
- يوسف العارفي (2012)، الشعر الشعبي في منطقة سور الغزلان، دراسة إثنوغرافية، رسالة ماجستير في اللغة والأدب العربي، فرع أدب شعبي، تيزي وزو، جامعة مولود معمري، الجزائر.